ابرة المغناطيس

للدكتور عبد الوهاب عزام

جلست الى مكتبي البارحة ، فوقع بصري على « بيت الابرة » ، فانفتحت أمامي سبلٌ من الفكر لاتحدها غاية . وانى اذ أحاول أن أقيد هذه الفِكَر على القرطاس لمحاول أن أسلسل بهذه الاحرف خطرات الفكر الخاطفة التي تطوى الاجيال والاقطار فى لمحات . وتجمع السماء والارض فى طرفة عين :

قلت ما أعجب هذه الابرة ! انها هادية لاتضل ، عارفة لاتخطىء تنتحى الشمال مهما أدرتها عنه ، ولا تنسى عهد المغناطيس مهما أبعدتها منه . ومهما جمعت عليها من الحجب والظلمات ، وأضعفت لها فى المسافات ، فهى مولية وجهها شطره محسة جذبه ، موصولة به ، خبيرة بوحيه ، لاتنساه ولا تشرك فى هواه . ليت شعري أأهدى من الانسان هذه الابرة الصغيرة! أجل انها لتهدى الانسان فى البر والبحر والسفر والحضر .

أحسست حينئذ خفقان قلبي يذكرني أن فى صدر الانسان ابرة أخرى مرشدة هادية ، تتوجه شطر معدنها أبدا ولا يصدها عنه تطاول الأمد وبعد المدى

ألم تهد هذه الابرة الأمم فى ظلمات الجاهلية ، وغيابات القرون ، فعصمتهم على العلات من الهلاك وأخرجتهم إلى النور على تكاثف الظلمات . ولاتزال هادية بصيرة بالغاية ، خبيرة بالسبيل اليها — كم عبدت الانسان شهواته ، وأضلته عن الخير مطامعه . فما زالت هذه الابرة تضطرب فى صدره حتى اهتدى سبيل النجاة ، ووضع على هداها منار الطريق . كم طغت بالانسان ضغائنه وأحقاده ، فمازالت هذه الابرة تخفق فى جوانحه حتى عرف إلى الحب والألفة والمودة السبيل ، واستقام على النهج لايميل . وكم غلا الانسان فى ظلمه وعدوانه ، فمازالت تتحرك فى أضلاعه حتى أشعرته نقسها ثم ردته إلى خطة للعدل محمودة ، وسبيل من الانصاف رشيدة .

وكم غدر الانسان ثم اهتدى بها الى الوفاء فندم على ماقدم ، واغتبط بما اهتدى . وكم أجرم الانسان فوخزته فأفاق ، فكأنما صور خلقاً آخر ينفر من الاجرام ، ويزكن الى السكينة والسلام . وكم سفلت بالانسان سجاياه ، فعملت فى صدره حتى سمت به إلى العلياء ، وطارت به من الحضيض الى عنان السماء . وكم وقفت الانسان همته فدفعته هذه الابرة العجيبة فمضى قدُمًا الى العمل ، وهمزته فدأب لايعرف الكلل . وكم أظلم على الانسان طريقه ، وعميت عليه أرجاؤه . واطبقت عليه سحائب سوداء ، وأحاطت به ظلمات لاشية فيها من الضياء ، فنظر اليها فاذا هى الى الغاية دليل ، واذا هى عالٍ الظلمات قد استقامت على السبيل — وكم حارت بالانسان آراء مضلة . وأفكار غائلة ، وأقوال ساحرة ، فلماهلك أو كاد ، ودارت به الحيرة والالحاد ، أحس اضطرابها فى نفسه فسكن ، فتهافتت الآراء وتهاترت الأقوال ، وثاب اليه هداه فوجد أمامه الله .

* * *

إيه أيتها الابرة الهادية ! ضل الانسان فى ضلاله وهرمه ، وجهله وعلمه ، وسعادته وشقائه ، ووحدته واجتماعه ، وحله وترحاله ، لولا هداية من الله فيك . وبصيص من نوره فى نواحيك ، وصلة به لاتنقطع ، وشعور به لايضل ، وجذوة من حبه لاتخمد .

وأما الذين أضلتهم الأهواء ، فعميت عليهم الانباء ، وتخطفتهم فى الحياة المآرب ، فتذبذبوا بين شتى المذاهب ، وشرق بهم مطمع وغرب آخر ، وتلونت لهم غيلان من الآمال والاعمال ، والذين فقدوا أنفسهم وهم لايشعرون ، وضل سعيهم وهم يحسبون انهم مهتدون ، والذين يلبسون كل يوم ديناً ، ويبدلون كل حين رأياً ، ويلبسون لكل دولة وجهاً ، ولكل سلطان زيًا ، ويتخذون لكل ساعة لساناً ، ولكل فرصة وجداناً ، فأولئك أغفلوا النظر اليك فحرموا الاهتداء بك ، بل أولئك فى إبرتهم خلل قدعرض ، أو أولئك فى قلوبهم مرض .

عبد الوهاب عزام